

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الثالثة من
دورة علم أصول الفقه

قضية الثبوت
الأستاذ الدكتور/ علي جمعة

١٩٩٤-١٠-٩

بسم الله الرحمن الرحيم
المحاضرة الثالثة من دورة علم أصول الفقه
قضية الثبوت
الأستاذ الدكتور/ على جمعة

١٩٩٤-١٠-٩

في هذه المحاضرة بعد أن تعرضنا في المحاضرة الأولى لمدخل سريع يتكلم عن مقدمات علم أصول الفقه، وفي المحاضرة الثانية تعرضنا لنظرية الحجية وكيف أن الحجية بالأساس عندما جاءت في الكتاب والسنة، والأصوليون لا يتكلمون في كتبهم عن حجية الكتاب والسنة لأنهم يعدون ذلك من المسلمات التي لا تحتاج إلى كثير نظر، ولا كثير إثبات فلا يتكلمون باستفاضة عن حجية الكتاب والسنة، ولكن يتكلمون فيما وقع فيه الاختلاف من حجية الإجماع والقياس وغيره من الأدلة المختلف في حجيتها، فيقيم الأصولي الذي رأى حجية دليل منها الدليل على هذه الحجية، ويكتفون بتسليم جميع المسلمين بأن الكتاب والسنة لهما الحجية على جميع المسلمين ولم يقع خلاف أبداً في حجية الكتاب، ولا في حجية السنة، بين أحد من المسلمين من أهل القبلة بجميع فرقهم وعلى جميع الأعصار، فبالرغم من افتراق المسلمين فرق شتى فإنهم اجتمعوا على أشياء منها أنهم لم تقل منهم فرقة بعبادة النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً كما قالت فرقاً من قبل في الأديان السماوية السابقة، فمنهم من قال إن عذير ابن الله ومنهم من قال إن المسيح ابن الله، ولكن أحداً من المسلمين لم يقل أن محمداً هو الله، أو ابن الله أو حل فيه الله، أو أي شيء من هذه الأمور. كذلك اتفقوا على أن القرآن حجة على المسلمين وأن السنة حجة على المسلمين.

النظرية الثانية: التي نراها ماثورة في كتب أصول الفقه إنما تتكلم عن الثبوت، إن كان القرآن والسنة والإجماع ونحوها من الأدلة التي تحتاج إلى نقل، والتي تحتاج إلى رواية مثل قول الصحابي، ومثل شرع من قبلنا، ومثل القول بأقل ما قيل إلى آخر هذه الأدلة، فإننا ينبغي علينا أن نتأكد من صحة ثبوت ما بين أيدينا في هذا العصر، ومن أنه منسوب نسبةً صحيحة إلى مصدره، سواء كان هذا المصدر هو النبي صلى الله عليه وسلم في قرآنية القرآن أن هذا الذي صدر من النبي كان قرآناً، أو في نسبة الحديث إليه، أو في نسبة الحديث إلى الصحابي أنه من قول الصحابي، أو في نسبة قول بعض الأئمة من المسلمين حتى نحكم بأن هناك أقل ما قيل، أو أن هناك جماعة من المجتهدين في عصر معين قد اتفقوا على حكم معين، ولأننا لم نحضر تلك الأعصار لأننا الآن سواء كان هذا الآن هو جيل التابعين أو من بعدهم، بل جيل الصحابة نفسه لم يحضر النبي صلى الله عليه وسلم من أول البعثة إلى نهاية المطاف وهو

ينطق بالقرآن، ولم يتشرف أحداً من الصحابة الكرام بهذا أبداً فليس هناك من صاحب النبي صلى الله عليه وسلم في الليل والنهار، وفي السفر والحضر، وفي البيت وخارج البيت، وفي الأرض وفي السماء وفي كل أحواله صلى الله عليه وسلم ملازمةً يستطيع أن يدعى بأنه قد سمع القرآن وهو ينزل على محمد صلى الله عليه وسلم حين تنزيله، لم يصاحبه أحداً بهذه الصفة، لا أبو بكر ولا علي ولا غيرهم من أكابر الصحابة وممن لازمه الفترة الطويلة وكان أول من أسلم أو كان أول من جاهد، أو أول من هاجر... الخ، فلم يصاحبه أحد بهذه الصفة ولذلك ومن أجل أنه ليس هناك من صاحبه بهذه الصفة فقد قالوا إننا لا نستطيع -وإذا اجتمعت الجن والإنس أن ترتب القرآن الكريم طبقاً للنزول، هو الآن ذلك القرآن الذي بين أيدينا إنما هو العرضة الأخيرة لجبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم ينزل هكذا بل نزل مفرقاً عبر ثلاثة وعشرين سنة، وفي هذه السنوات ينزل جبريل بالمقطع فيقول ضعه ما بين آية كذا وآية كذا في سورة كذا، واستمر هذا الحال إلى أن انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، هل يمكننا أن نعيد مرة أخرى القرآن طبقاً لما نزل هذا يستحيل حواره بعض المعنويين فلم يفلح، ويقول الإمام النحاس⁽¹⁾ "لو اجتمعت الجن والإنس على أن تعيد القرآن مرة أخرى كما نزل لما استطاعوا" والسبب في ذلك أننا نفقد المعلومات حول هذا الشأن لأنه ليس هناك أحداً من البشر صاحب النبي صلى الله عليه وسلم هذه المصاحبة الدائمة الملازمة للمدة الطويلة حتى يدعي أن هذه الآية نزلت قبل هذه، أو هذه قد نزلت قبل هذه فهذا أمر قد سد، وأصبح الترتيب الذي عليه القرآن الآن في سورته وفي آياته داخل كل سورة مجمع عليه، ولا اختلاف فيه.

هذا القرآن سمعه الصحابة في عرضته الأخيرة تتأقلم شفوي عند طريق الشفاه عن طريق الكلام، عن طريق اللسان، بين الأستاذ والتلميذ، وبين الأب وابنه، وبين جيل والجيل الذي يليه، ينقلون فيه القرآن كما تلقوه تماماً، وإرادة الله سبحانه وتعالى أن يحدث بعض الغرائب والعجائب النحوية في النص القرآني، فإذا بالعربي ينقلها كما سمعها وهذا تأكيداً على التزامهم بما ذهبوا إليه وبما سمعوه حتى ولو كان مخالفاً لآرائهم النحوية، أو حتى لو كان مخالفاً للغة قبيلته، وهذا في القرآن كثير.

(1) أبو جعفر النحاس نحوي مصري، ولد بالفسطاط وأخذ النحو عن مشايخها، ثم رحل إلى بغداد وأخذ عن الزجاج والأخفش الأصغر والمبرد ونقطويه. وبعد رجوعه من العراق، تصدر النحاس حلقة النحو بالجامع العتيق بالفسطاط، وناقسه على رئاسة النحويين بمصر أبو العباس بن ولاد وكثيراً ما عُقدت المناظرات بينهما. أخذ النحاس الحديث عن الحسن بن غليب والنسائي. توفي بالفسطاط عام ٣٣٨ هـ.

كيف نقل إلينا القرآن؟

نحن الآن نركز على كيف نقل إلينا القرآن؟ نقل جيلًا فجيلًا، وفي كل جيل يقوم الأساتذة الحافظون بتعليمه للصغار كما هو، إلى أن أتينا في القرن الثاني الهجري فوجدوا أن القراءات القرآنية - وعددها عشرة - ينبغي أن تحفظ كما هي، فقام أكبر العلماء في هذه القراءة ليضبطوها، فنسبت إليهم، وهذه القراءات كانت موجودة في عصر الصحابة، وفي القرن الثاني الهجري قام عشرة من القراء بحفظ هذه القراءات فنسبت كل قراءة إلى الإمام الكبير الذي أتقنها. ليس معنى هذا أنه وحده هو الذي يعلمها، بل جيله كله يعلمونها، ولكننا أسميناها تخفيفاً ورمزاً بدلاً من أن نقول الطريق الأول، والطريق الثاني، والطريق الثالث إلى العاشر، أصبحنا نقول أن هناك قراءة تسمى قراءة نافع^(١)، لأن نافع هذا كان قد التزم بقراءة معينة تلقاها عن شيخه أبو جعفر، وأبو جعفر تلقاها عن شيخه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي كل طبقة من هذه الطبقات كان يقرأ بهذه القراءات مئات من البشر، لكننا سميناهم بقراءة نافع، لأنه قد التزمها ودونها، وعلمها، وسار عليها، حتى أتقنها إتقاناً كبيراً.

ورجل آخر اسمه عاصم بن أبي النجود قام بقراءة أخرى فسميت قراءة عاصم، وحمزة الزيات قام بقراءة ثالثة فسميت بقراءة حمزة، وقراءة أبي عمر، قراءة بني عامر، قراءة الكسائي، قراءة أبي جعفر، قراءة يعقوب وقراءة ابن كثير... وهكذا نجد أن كل واحد من هؤلاء الأئمة العشرة قد قام بقراءة نسبت إليه لا أنه ابتدعها وألفها، لا، إنما هو أتقنها فنسبت إليه^(٢).

جاءنا في القرن الثامن الهجري "محمد بن محمد بن محمد بن الجذري"^(٣) وجمع الأسانيد التي سمعنا بها القرآن في الروايات العشر فأصبحت أكثر من ألف سند للقرآن فقط، أي لو

(١) رواية ورش عن نافع هي إحدى الروايات المتواترة التي يُقرأ بها القرآن الكريم. تنسب إلى أبو سعيد عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو بن سليمان والملقب بورش. ورش هو عثمان بن سعيد ١١٠هـ - ١٩٧هـ) لقيه نافع بلقب ورش. كان مقرناً في مصر، ثم رحل إلى المدينة المنورة ليقرأ على نافع، فقرأ عليه ختمات في شهر سنة ١٥٥. فرجع إلى مصر وانتهت إليه رئاسة الإقراء في مصر، فلم ينازعه فيها منازع. مع براعته في اللغة العربية ومعرفته في التجويد. وكان حسن الصوت، قال يونس بن عبد الأعلى: « كان ورش جيد القراءة حسن الصوت. إذا قرأ يهزم ويمد ويشدد ويبين الإعراب، لا يمل سامعه».

(٢) ١- حفص عن عاصم. ٢- ورش عن نافع. ٣- شعبة عن عاصم. ٤- قالون عن نافع. ٥- البزي عن ابن كثير. ٦- قنبل عن ابن كثير. ٧- السوسي عن أبي عمرو. ٨- خلف عن حمزة. ٩- ابن ذكوان عن ابن عامر. ١٠- أبي الحارث عن الكسائي. ١١- الدوري عن الكسائي. ١٢- ابن جمار عن أبي جعفر. ١٣- ابن وردان عن أبي جعفر. ١٤- إسحاق الوراق عن خلف البزار. ١٥- رويس عن يعقوب الحضرمي. ١٦- روح عن يعقوب الحضرمي.

(٣) هو محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف الجزري الدمشقي العمري الشيرازي الشافعي، وكنيته أبو الخير، عُرف بابن الجزري، ونسب إلى الجزري كما أتى في المنح الفكرية للشيخ ملا علي القاري،

أحداً من البشر جاءني وسألني كيف تتوثق من أن ما بين دفتي المصحف الذي بين يديك هو الذي نزل على محمد، أو هو الذي صدر حتى من محمد، سواء أكان من عند الله أو من عند محمد فما الذي يدل على هذا، أقول له إنني قد سمعت فلاناً الفلاني، وهو شخص معروف لدينا، ومعروف متى ولد، ومتى توفي، وكيف تعلم وأين عاش، أي أن السيرة الذاتية الخاصة به عندنا. قال إنه تلقى وسمع هذا القرآن من شيخ هذا وصفه واسمه وعنوانه ومتى ولد ومتى توفي وكل المعلومات الخاصة به معناً، قال أيضاً أنه سمع شيخاً له اسمه وهكذا وهكذا إلى أن نعد ثلاثة وعشرون شخص الآن بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بسند واحد وإنما بألف سند. أستطيع لو أنني قد قرأت على ألف شيخ أن أنشئ ألف سند للقرآن كل هؤلاء الناس الذين نسمعهم في الإذاعة والذين يكتبون أسماءهم في نهاية المصحف في لجنة تصحيح المصحف الشريف، قد تلقوا هذا القرآن كلمة كلمة وحرفاً حرفاً، وكيفية أداء للنطق في كل حروفه عن أشياخهم عن أشياخهم عن أشياخهم إلى أن نصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. كل طريق من هذه الطرق نسميه سندا، والسند مكون من حلقات كل حلقة من هذه الحلقات تمثل شخصاً، إنسان، عالم، وكل عالم من هؤلاء العلماء معروف لدينا، باسمه وبكيفية حفظه وبأخلاقه، ومن أين هو وليس مجموعة من المجاهيل لا نعرفهم لا بل كل شخص نعرفه.

ولو أتينا في المقابل عندما أردنا -وأيضاً في نظرية الثبوت- أن نسأل أنفسنا سؤالاً هل شرع من قبلنا شرع لنا، فهل الشرع الذي نزل على موسى أو عيسى أو إبراهيم عليهم الصلاة والسلام نُكلف نحن به؟ فأول سؤال بعد أن قلنا لأنفسنا نعم، مادام لم ينسخ في شرعنا نُكلف به مثلاً لو قلنا لأنفسنا مجتهد جلس بينه وبين نفسه يفكر وقال يا ترى هل ما خاطب الله به إبراهيم أنا مكلف به إن كان هذا الأمر ليس وارداً في شريعتي ما ينسخه وما يلغيه؟ ثم قال

نسبة إلى جزيرة ابن عمر شمال سورية) حالياً في تركيا)، كذا ذكره ابن المصنف وتبعه من بعده في إجماله، وفي القاموس: بلد شمال الموصل يحيط به دجلة مثل الهلال، والمراد بابن عمر الذي نُسب إليه هو عبد العزيز بن عمر وهو رجل من أهل برقيع من عمل الموصل، بناها فنُسبت إليه، نص على ذلك أبو الوليد بن الثلثة الحنفي، في تاريخه "روضة المناظر في علم الأوائل والأواخر" فليس بصحابي كما توهمه بعضهم. وورد في كتاب الفوائد التجويدية في شرح المقدمة الجزرية، نسبة إلى جزيرة ابن عمر بن الخطاب الثعلبي حوالي عام 961م، وكانت ميناء أرمينية. ولد يوم الجمعة ليلة السبت 25 رمضان سنة 751 هـ الموافق 30 نوفمبر 1350م داخل خط القصاصين بين السوريين بدمشق الشام، وهو كردي الأصل، كان أبوه تاجراً ومكث أربعين سنة لم يرزق ولداً، فحج وشرب من ماء زمزم، وسأل الله أن يرزقه ولداً عالماً، فولد له ابنه محمد هذا بعد صلاة التراويح. نشأ في دمشق الشام، وفيها حفظ القرآن وأكملاه وهو ابن ثلاثة عشر عاماً، وصلى به وهو ابن أربعة عشر. كان صاحب ثراء ومال، وبياض وحمرة، فصيحاً بليغاً.

لنفسه لماذا لا؟ الله يخاطب إبراهيم إذن فالله راضى عن هذا الفعل، إذا ما خاطب مريم فقال لها [فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا] (مريم: ٢٦) دل هذا على أن الصوم عن الكلام قد أمرت به مريم، إذن فالله يرضى عن الصوم عن الكلام، وأنا لم أجد في القرآن ما ينهى عن ذلك، فلماذا لا أصوم عن الكلام؟ فيقول المجتهد لنفسه فإن غداً لا أكلم إنسياً تعبداً لله سبحانه وتعالى.

إذن هذا المجتهد - هذا الكلام مردود عليه - لكننا نتصور أن مجتهد يقول لنفسه هكذا، هذا المجتهد لما أن توصل إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا، ينبغي أن يسأل نفسه سؤالاً آخر كيف أعرف، وكيف أتوصل ما الذي أمر الله به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، هناك في المكتبات أوراق مكتوب عليها صحف إبراهيم، وصحف آدم، صحف شيث، هناك أشياء في المكتبات مكتوب عليها الكتاب المقدس التوراة والإنجيل، السؤال الذي يحير المجتهد من أين لهم هذا (الإنجيل على سبيل المثال)؟ فإذا ذهبنا نسأل هذا السؤال لأهل تلك الأديان لا نجد إجابة عندهم، لا يوجد عند النصارى أي سند.

الترجمة التي قام بها الشدياق^(١) واليازجي والبستاني في عام ١٨٤٨ ميلادياً تخالف تمام المخالفة الترجمة العربية التي كانت تطبع وتوزع وتكتب وتعتمد في الأديرة قبل هذا التاريخ مخالفة شبه تامة فأين الصواب؟ بل من المضحك أن إذا ما جاءت العبارة في تلك

(١) أحمد فارس الشدياق (1804-1887)، هو أحمد فارس بن يوسف بن يعقوب بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق بن المقدم رعد بن المقدم خاطر الحصري الماروني من أوائل الأفاضل الذين اضطلعوا برسالة التنقيف والتوجيه والتنوير والإصلاح في القرن التاسع عشر غير أن معظم الدراسات التي تناولته عنيت بالجانب اللغوي والأدبي وأهملت الجانب الإصلاحي ولم ينل ما ناله معاصروه من الاهتمام من أمثال ناصيف اليازجي (١٨٠٠-١٨٧١) ورفاعة الطهطاوي (1801-1873) وعبد القادر الجزائري (١٨٠٧-١٨٨٣). صحفي لبناني كان يصدر صحيفة الجوائب (1881 م - ١٨٨٤) في إسطنبول. من ألمع الرحالة العرب الذين سافروا إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر. كان الكاتب والصحفي واللغوي والمترجم الذي أصدر أول صحيفة عربية مستقلة بعنوان الجوائب متفقاً لامعاً وعقلاً صدامياً مناوشاً أيضاً. ماروني بالولادة، وتحول أكثر من مرة في أكثر من طائفة في المسيحية إلى أن أسقط على الإسلام. عاش في إنجلترا ومالطة ورحل أيضاً إلى فرنسا يعد أحمد فارس الشدياق أحد أهم الإصلاحيين العرب في عهد محمد علي وله منهجه الإصلاحي الخفي الذي يبدو فيه أنه فضل التورية والترميز على التصريح والإشهار وذلك لما كان يحويه منهجه من انتقادات لاذعة للقيادات الرجعية ولخوفه من أن يدان من قبلها أو تحرق أعماله ويظهر هذا في كتابه (الساق على الساق فيما هو الفاريق). كانت لهذا الرجل الذي عاصر فيكتور هوجو وجوستاف فلوبيير وإدجار آلن بو وتشارلز ديكنز اتصالات بمستشرقين ومتقنين عرب. وكتمكن بارع في اللغة العربية، متمرس بفن البلاغة وبقائيق القاموس اللغوي، فقد كان في الوقت ذاته أحد أهم مجددتها.

الكتب، وأعترض عليها لأنها عبارة غير منطقية، وجدنا الطبعة الثانية قد غيرتها وأصبحت لها صياغة أخرى لا يمكن الاعتراض عليها، فأنا أتذكر مثلاً في بداية الإنجيل أن آية تقول: "أن رجلاً من المجوس قد أتوا يسألون عن الملك، ومتى يولد، ويعنون المسيح عليه السلام فاعترض على هذه الآية أنه كيف تكون هناك عداوة بين المجوس وبين بني إسرائيل، فالمجوس على عهد نبوخذ نصر^(١) أسروا بني إسرائيل وساموهم سوء العذاب ثم يأتي رجلاً منهم يبحثون عن ملك بني إسرائيل الذي سيهدم ملكهم ويأتون له بالهدايا، ويفرحون الفرح الشديد، كان من الممكن أن يرد على هذا أن أولئك أناس من المجوس كانوا أتقياء أو كانوا عقلاء، أو كانوا أي شيء، لكنهم حذفوا كلمة المجوس في الطبعة الثانية وكتبوها رجلاً من الحكماء؛ لأن كلمة المجوس عندما أعترض عليها حذفت وكتبت كلمة ثانية بمنتهى السهولة، المهم ألا يعترض على هذا التأليف لم يحدث إطلاقاً هذا في الكتاب (القرآن الكريم) فالكتاب الغنة لها مقدار بالصواب، ورحمه الله الشيخ عامر كان إذا ما سمع يقول له يا شيخ عبد الحلیم فيها ثمن حركة، فهزت إبداع، لأنه يريد أن ينقل القرآن كما سمع، ومشادة كبيرة بين المشايخ في كونه يقول (من بعد) أو (من بعد) مع الإدغام^(٢) وظللت حوالي سنتين أو ثلاثة لا أعرف

(١) نبوخذ نصر الثاني (القرن السادس ق. م. ملك بابلي أعظم ملوك الشرق الأدنى) في القرن السادس قبل الميلاد استعادت الإمبراطورية البابلية مجدداً ازدهارها ومجدها وسيطرتها العنوانية على عهد الملك نبوخذ نصر الثاني بصورة خاصة، بعد أن تمتعت بفترات من القوة والعظمة أعقبها فترات من الانحطاط والانحلال. وكان هذا الملك قائداً حروبياً ورجلاً عمرانياً محباً للبناء. قاد حملة إلى مصر وانتصر على الفرعانة، واستولى على قسم من فلسطين، ونهب القدس حوالي ٥٨٦ ق. م.، وأرسل كل اليهود البارزين أسرى إلى بابل. وهكذا جعل نفسه أعظم الملوك في الشرق الأدنى في عصره. ولكنه لم يشغل كل وقته في الحرب. فقد كان ينبغي أن تكون بابل الجديدة آية في الجمال والروعة والفخامة، فأعاد بناءها، وسورها بسور يبلغ عدة كيلومترات طولاً. وفي الداخل أنشأ الحدائق المعلقة التي اعتبرت فيما بعد في جملة عجائب الدنيا السبع. ويزعمون أن نبوخذ نصر كان يشكو من نوع غريب من الأمراض العقلية يُعرف بالاستئذان - وهو جنون يتوهم المصاب به بأنه مُسخ ذنباً، فيتصرف في تلك الفترة على هذا الأساس. (نبوخذ نصر (بأرامية نبوكاد نيزار، وبالعبرية نيبوكادنييسار وباليونانية نبوخذنيسور وبالعربية نبوخذ نصر) أو يختصر أو يختصر الكلداني (٦٠٥-٥٦٣) ق. م أشهر ملوك الدولة البابلية الحديثة قاد الجيوش البابلية في معارك حاسمة على منطقة بلاد الشام ودمر عدة ممالك منها مملكة يهوذا، حسب الكتاب المقدس في حملتين وسبا الكثيرين من سكان منطقة بلاد الشام إلى بابل، وقام ببناء الجنائن المعلقة التي أعدت من عجائب الدنيا السبع. الاسم الاكدي لنبوخذ نصر هو نيو كودورو اوسور، ومعناه المدافع عن نيو، ونيو هو اله التجارة عند البابليين وهو ابن الاله مردوخ، وكان أحياناً يطلق عليه اسم بختنصر ومعناه السعيد الحظ.

(٢) الإدغام الصغير: أو الشفوي. حروفه: حرف واحد هو الميم. هو إدغام الميم الساكنة بميم بعدها بغنة كاملة ويقع إذا وقعت الميم المتحركة بعد الميم الساكنة وجب الإدغام وسمى ذلك إدغام مثلين (متمثلين)

الفرق بينهما، أو يضم فمه عند قول النون فتصبح ميماً، فالإلى هذا الحد وإلى ضغط الشفاه على الشفاه لا يفرق أبداً بينهما البعيد، أو الروم والإشمام⁽¹⁾ (ويقولون عنهما يراه البصير ولا يسمعه الأعمى) وفائدة هذا أنه يرتعد أمام القرآن، وأنه يقدر هذا النص لدرجة أنه يحاكي شيخه فما سمعه وراه فيفعل مثل ما فعل حتى في حركات الشفاه التي لا تؤثر أصلاً في الصوت، فيبصرها البصير ولا يراها الأعمى فهي حركة شفاه فقط لا غير، فهي محاكاة فقط لا غير، فهو يريد أن ينقل كما سمع ويعتبر هذا أمراً مقدساً غاية في القداسة لا يستطيع أن يحقره أو يستهزئ به أو أن يقف منه موقف الراض أو خلافه، ولو فعل أحد هذا لقبول باشمئزاز، ما فائدة كل هذا النقل والرواية والتثبت والثبوت أن هذه صارت قضية كبيرة حتى نعرف أن ما بين أيدينا الآن حتى في طريقة نطقه إنما هو الذي نزل من أربعة عشر عاماً ؟

صغير سواء كان ذلك في كلمة أم كلمتين، مع مراعاة إطباق الشفتين الكامل، نحو: ﴿مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ فتصبح لفظاً: مم مَائِمٌ مَّهِينٌ .

• في كلمة نحو: الم - المص

• في كلمتين (أم من) (كم من فئة)

(1) الروم: وهو الإتيان ببعض الحركة، أو هو خفض الصوت عند النطق بالضممة أو الكسرة الموقوف عليها بحيث يذهب معظم صوتها.

والروم حُكْمُهُ حُكْمُ الوَصْلِ، فلا يمدُّ معه العارضُ للسكون، ويُعاملُ الحرفُ الموقوفُ عليه من حيثُ التقخيمُ والترقيقُ كما يُعاملُ المتحركُ نحو: - الأشرُ- نَقَفُ عليها بترقيقِ الراء، لكن لو أتينا بالروم تصبح مفخمة الإشمام: مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّمِّ، كأنك أشممتَ الحرفَ رائحةَ الحركة (وهو ضم الشفتين بُعيدِ سكون الحرف كهيئتهما أي: الشفتين عند النطق بالضممة، وهو إشارة إلى الضم، ومن ثمَّ فلا يُدرِكُهُ إلا البصير .

وفائدة الإشمام: بيانُ الحركة الأصلية التي تَبَيَّنَتْ في الوصل للحرف الموقوف عليه وهو إشعارُ الناظر أن الحرفَ الموقوفَ عليه بالسكون حركته الضمة حين الوصل، لذلك لا يأتي القارئ بالروم والإشمام إذا كان يقرأ بمفرده إنما يأتي به إذا كان هناك من يستمع لقراءته.

ويمدُّ معه العارضُ للسكون ٢ أو ٤ أو ٦ حركات نحو: نستعين فتأتي بالإشمام على الوجوه الثلاثة. ويُعاملُ الحرفُ الموقوفُ عليه بالإشمام من حيثُ التقخيمُ والترقيقُ كما يُعاملُ الساكنُ نحو: { الأشرُ } نَقَفُ عليها بترقيقِ الراء ونضمُ الشفتين بُعيدِ التسكين. وهناك كلمة واحدة في القراءن يجب فيها الإشمام أو الروم وهي (لَا تَأْمَنَّا) في قوله تعالى: (قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ) فأصلُ الكلمة "تَأْمَنْنَا" بنونين، أدغمت الأولى في الثانية لسهولة النطق بها ويجوز فيها وجهان الروم والإشمام. الإشمام: وهو عين الإشمام المتقدم في الوقف، أي: ضمُّ الشفتين بُعيدِ السكون وهنا بُعيدِ الإتيان بالغنة والإشمام هنا للإشارة إلى حركة الفعل، وهي الضمة، وحتى لا يُظنَّ بأنَّ الفعلَ مجزومٌ بلا، إذ أنَّ لا هنا نافية لا عمل لها وليست جازمة وإنما أدغمت النون الأولى في الثانية لسهولة النطق بها كما أسلفنا. الروم: وهو الذي تقدم معنا أي: الإتيان ببعض الحركة أو خفض الصوت عند النطق بالضممة ويمتنع معه الإدغام حينئذٍ، وتلفظ نونين.

ثبوت السنة

هذا السند ظهرت فائدته أكثر وأكثر في قضية السنة لأن القرآن بطبيعة نظمه لقداسة نصه لأنه كلام الله، ولأنه أيضاً محدود ومحدد يبدأ بالفاتحة وينتهي بالناس، فإنها قد تواترت النص عن تلاوته، على حفظه، على نقله كما أنزل، ولكن السنة ليست كذلك فمنهم من سمع ومنهم من لم يسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حديثاً، ومنهم من لم يفهم، ومنهم من سمع فأخطأ السمع، ومنهم من خلط بين واقعتين أدخل بعضهم في بعض، ومنهم من كان متيقظاً، منهم من روى بالمعنى، ومنهم من التزم اللفظ وكل هذه الأشياء لا وجود لها في القرآن، فاحتجنا إلى نظرية الثبوت في السنة بأكثر منها في القرآن ومن هنا اهتم العلماء في السنة بوضع علوم لتلك السنة كعلم الرجال، وعلم مصطلح الحديث.. وهكذا بأكثر مما اهتموا في نقل القرآن، لأن القرآن منقول من الكافة إلى الكافة بطبيعته، من غير بحث كثير، لكن السنة ليست على هذه الهيئة فأقاموا مجموعة من العلوم كونت في مجملها نظرية الثبوت وأكدتها، فذهبوا إلى السند يدرسونه فوجدوا حديثاً له سند واحد، سمعه من النبي صحابي واحد وسمعه من ذلك الصحابي الواحد تابعي واحد، ثم الجيل الذي بعده سمعه واحد فقط... الخ.

وروي أن هناك من الأحاديث ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم اثنان ومنهم ثلاثة ومنهم أربعة، خمسة، مائة، ولكن هذا الذي قد سمعه عشرة إذ به في الطبقة الثانية يصبح عشرين روه عن العشرة، ومن العشرين يصبح مائة فمئتين، ووجدوا شيئاً غريباً أن صحابي واحد سمع حديثاً ثم سمعه منه سبعمائة نفس، صحابي واحد سمع حديث ثم سمعه منه اثنان ثلاثة أو أربعة.

إذن عندما نرسم الشجرة للأسانيد نجدها جد مختلفة فبدأوا يفكرون في ترميم هذا الخضم الهائل من المعلومات ومن الأشكال التي عندهم، فمثلاً عندي حديث سمعه عمر بن الخطاب: عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل أمرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه"^(١). ثم بعد ذلك يصل منفرداً عن علقمة وعن أسود وهكذا إلى يحيى بن سعيد ومن يحيى بن سعيد يعد له الحافظ بن حجر سبعمائة سند رواها يحيى بن سعيد للناس، في حين أن قول النبي صلى الله عليه وسلم (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وجدنا له مائة وعشرون صحابي يرووه عن الرسول صلى الله عليه وسلم. كون

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما

النبي صلى الله عليه وسلم كان يرفع يديه بالتكبير عند الانتقال رواه أكثر من عشرين صحابي... وهكذا

وجدنا أحاديث كثيرة قد توافر عليها الجم الغفير من الصحابة فسموها الأحاديث المتواترة لأن عشرين فأكثر من الصحابة رووها إلى عشرين أو أكثر من التابعين على الأقل إلى عشرين أو أكثر من تابعي التابعين على الأقل... وهكذا، فوجدنا لكل حديث ثلاثين أو أربعين سند على الأقل، فقلنا أن هذه الأسانيد أسانيد متواترة، وهذا حديث متواتر.

وما لم يكن على هذه الصفة أن الحديث يكون له عشرة أسانيد عشرين سند أو ثلاثون سند، إذن كم سند حتى نعدّه متواتراً؟ اختلفوا في هذا فبعضهم يقول عشرة وبعضهم يقول مائة لكن الراجح أنهم جماعة يستحيل تواطئهم على الكذب، فالعشرة مناسبة، فشاع بين الناس أن من له عشرة أسانيد فهو متواتر، فعندما نعد الأحاديث المتواترة التي بين أيدينا لا تزيد عن مائتان وخمسون حديث بهذه الأسانيد الكثيرة لكل حديث، بعد ذلك وأغلب الأحاديث والذي بين أيدينا من الأحاديث نحو ستين ألف حديث، أغلب هذه الأحاديث إنما يرويها الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة، فكل حديث إما له سند أو سندان، أو ثلاثة أو أربعة، فسموا الحديث الذي له أربعة أو خمسة بالحديث المشهور، وسموا الذي له سندان فقط بالحديث العزيز لأنه نادر وسموا الذي له سند واحد بالحديث الغريب، وبدأوا ينظروا إلى أشجار الأسانيد هذه فإن كان صحابي واحد هو الذي رواه عن الرسول صلى الله عليه وسلم يسموه الغريب المطلق، لأنه لن يتحول في يوم من الأيام إلى سندان، سيكون سند له شعبتين، فالصحابي هو الذي تلقاه فقط وهو واحد فقط وسيكون الحديث دائماً غريب لأن الصحابي هو الذي يرويّه، حتى ولو أنه قاله لاثنتان من التابعين فهذا يجعل هناك سندان ينتهوا إلى الصحابة نعم، ولكنهم في حقيقته أنه سند واحد ينتهي إلى النبي لأنه شخص واحد فقط هو الذي رواه عن النبي.. ومن هنا كان المحدثون ينسبون الحديث للصحابي فيقولون هذا الحديث هو حديث أبي هريرة، وأبو سعيد الخدري، وابن عمر، إذن هؤلاء الثلاثة هم من رووه أو أبي هريرة فقط حتى وإن كان أبي هريرة هذا له أسانيد كثيرة فيكون حديث واحد. لماذا؟ قالوا لأن أبي هريرة ليس معصوماً ولا عمر معصوم، ولا أبو بكر معصوم من الخطأ ومن النسيان ومن الكذب أيضاً، فهل يعقل أن أبا بكر يكذب؟ قالوا لا يعقل عندنا اعتقاداً، ولكن عقلاً يعقل، فهو مستحيل عادة وليس مستحيل عقلاً، ونحن نسير مع العقل وليس مع العادة، وعلى ذلك فمن المحتمل أن أبا هريرة أو عمر أو غيره - بالرغم من أنهم ثقاة بالرغم من أنهم صادقون - إلا أنهم بشر يحدث عندهم النسيان ويحدث عندهم المرض، ويحدث عندهم الخطأ، ويحدث عندهم أشياء من هذا القبيل.

مثال عن السيدة عائشة رضي الله عنها: في صحيح البخاري ومسلم وسنن النسائي واللفظ لمسلم: عن ابن عباس ما موجهه: لما قدمنا المدينة لم يثبت أمير المؤمنين أن

أصيب، فجاء صهيب يقول: والخاله بكاء أهله، فقامت فدخلت على عائشة فحدثتها بما قال ابن عمر، فقالت: لا والله إن الميت ليعذب ببكاء أحد ولكنه قال: إن الكافر يزيد الله بكاء أهله عذاباً وإن الله لهو اضحك وأبكى. و لا تزر وزارة وزر أخرى.

وعن القاسم بن محمد قال: لما بلغ عائشة قول عمر وابن عمر قالت: إنكم تحدثوني عن غير كاذبين ولا مكذابين، ولكن السمع يخطئ^(١).

وجاء في صحيح مسلم و البخاري وسنن الترمذي وموطأ مالك واللفظ للأول: عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: ذكر عند عائشة قول ابن عمر: الميت يعذب ببكاء أهله عليه، فقالت: رحم الله أبا عبد الرحمن، سمع شيئاً فلم يحفظه، إنما مرت على رسول الله جنازة يهودي وهم يبكون عليه، فقال: انتم تبكون وإنه يعذب^(٢).

قال الإمام النووي (ت 676 هـ) في شرح صحيح مسلم عن روايات النهي عن البكاء المروية عن رسول الله ﷺ: وهذه الروايات من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما وأنكرت عائشة ونسبتها إلى النسيان والاشتباه عليهما، وأنكرت أن يكون النبي ﷺ قال ذلك^(٣).

مناقشة الروايات

فهنا يوجد تعارض فهذا رأى عائشة فهي قالت أن السمع يخطئ فهناك احتمال أن يكون هذا خطأ بغض النظر عن أيهما كان صواباً، هل عائشة لأنها استدلّت بالآية، أو ابن عمر ويكون للحديث معنى آخر فهذه قضية أخرى، لكن المهم أننا عند التوثيق نعلم أنه لما يكون شخص واحد هو الذي سمع فإن السمع يمكن أن يخطئ، وتقول عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال -صيغة فعلاً تشبّه لو أن المرء يسير وغير منتبه جيداً لما يقول الرسول ﷺ - قال: "هذا رجل يعذب في قبره وأهله يبكون عليه" فالسيدة عائشة تروى الحديث بهذه الصفة فالنبي ﷺ مر على قبر فأوحى إليه بأن من في القبر الآن يعذب، لأنه كان رجلاً غير صالح، هذه قضية أخرى، وحال الكون هذا الإنسان وهو يعذب أن أهله يبكون عليه، كأنه يريد

(١) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ٩ ح ٢٢ و ٢٣، وصحيح البخاري كتاب الجنائز، باب يعذب الميت ببكاء أهله عليه: ١55-156، وسنن النسائي ٤: ١٨، كتاب الجنائز، باب النياحة على الميت، والإجابة لايراد ما استدركته عائشة على الصحابة للزركشي: ٨٢ باب استدراكها على عمر بن الخطاب.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ٩ ح ٢٥، وصحيح البخاري ١: ١٥٦ كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء بعض أهله، وصحيح الترمذي، كتاب الجنائز، باب ٤٢٥: ٢٢٦ - 227 روايتان، وموطأ مالك ١: ٢٣٤ كتاب الجنائز، باب النهي عن البكاء على الميت.

(٣) الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٦: ٢٢٨ كتاب الجنائز.

أن يقول خسر الدنيا والآخرة لكن ابن عمر وضع باء السببية بين العبارتين "هذا رجل يعذب ببياء أهله" فهو قد سمع الواو بباء، ولو عرفنا أن الواو من حروف الشفاه، وأن الباء أيضاً من حروف الشفاه، فعرفنا أن الواو تشبته بالباء، وتشبته بالفاء والميم، لأن الأربعة حروف هؤلاء من حروف الشفاه، ولذلك تجد في لغات العالم تبادل عجيب بين الواو والفاء والباء...والخ فمثلا اسم "توحيدة" في العربية تنطق في التركية "نفيدة" في التركية.

أخذ علماء الحديث من هذا أن لا بد في الثبوت من أن ننظر إلى الرجل وإلى السند وإلى الحلقة ونشترط فيه أن يكون ضابطاً، وأن يكون عدلاً، بأن لا يكون كذاباً وألا يكون فاسقاً، ولا كافراً، وضابطاً بألا يكون مغفلاً... وبالرغم من ذلك إلا أن الحديث الذي قد ورد بسند واحد كل رجاله ثقاة فإننا نسميه بالحديث الصحيح لكنه يكون ظنياً خوفاً أن يكون واحد من هؤلاء الثقاة -الذين حكمت عليهم بأنهم ثقاة في الظاهر- في علمي، على حد ما رأيت منهم، ما رأيت منهم سوءاً، أناس يتقون الله علماء فضلاء، لكن هذا يؤكد بيني وبين أما الله أنهم لا يكذبون، قد يكذبون وهي نسبة ضئيلة ولكنها موجودة حتى ولو كانت ١% ولكنها موجودة فقد يخطئوا السمع وهكذا.

فمثلاً: دخل صحابي والنبى صلى الله عليه وسلم قد بدأ الحديث ودخل هو بعد أن بدأ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول (لعن الله اليهود إنهم يقولون...) وهنا دخل الصحابي فسمع الرسول يقول (إن الله قد خلق السموات والأرض في ستة أيام، ثم تعب فاستلقى على قفاه، ووضع رجله اليمنى على رجله اليسرى) وسكت الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنه قبل ذلك المقطع لعن اليهود الذين يصفون الله سبحانه وتعالى بما هو منزه عنه من مشابهته للمخلوقات، لكن رواه عن رسول الله هكذا، فالصحابي لم يسمع سوى هذا الجزء ولم يسمع ما قبل هذا من الكلام والذي يثبت بأن هذا الكلام لليهود والذي يدعى عليهم الرسول أن يلعنهم الله لأنهم يقولوا ذلك ولكن الصحابي روى ما سمعه ولو وصل هذا إلى الناس لكانت كارثة لأن هذا يهدم العقيدة كلها لأنه أساس عندي أنه [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ] (الشورى: ١١) وأساس عندي أنه [قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ] (الإخلاص: ١-٤). فنفي المثلية تماماً فالرب رب، والعبد عبد، وهناك فارق بين المخلوق والخالق.

فكل هذه الأشياء جعلتهم يقولون إن السند الواحد لأن الإنسان في أحاديته معرض للعوارض البشرية، وأنظر إلى الأدب في الحديث فهم لم يقولوا معرض للكذب بل قالوا إنه معرض للعوارض البشرية، والعوارض البشرية تشمل (النسيان، والخطأ، والمرض، والكذب)

فإنها لا يمكن أن تصل بهذا إلى اليقين بل تصل إلى الظن الراجح، أي أن عندما يجد الإنسان سند فيه الإمام الشافعي، عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر، عن الرسول صلى الله عليه وسلم فيطمئن قلبه لأن هؤلاء الناس أثبات، عدول، فقهاء اشتهر فضلهم فقاموا الليل خيفة ربهم وصاموا النهار عبادةً له، وكانوا زاهدين في الدنيا، وجربوا في مواقف كثيرة فإذا بهم قد وقفوا المواقف التي تدل على ديانتهم، وعلى عدم تفریطهم في إسلامهم، أيكذبون على رسول الله ولكنهم قد يخطئون، لكن أنا عندما أرى السند على هذه الهيئة يترجح عندي بنسبة ٩٩% أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال هذا، فإن أتى أحدهم وقال لي أنا لا أؤمن بهذا الحديث، لماذا؟ فيقول لي لأنه معارض للقرآن، أو معارض لحديث آخر، أو أنه يصطدم مع الأساسيات التي فهمناها من القرآن، فلا أفسقه أو أكفره فاختلف معه في الرأي، أما لو جاء لي شخص آخر وقال أنا أرد هذا الحديث، فقلت له لماذا؟ قال لي إنه لا يعجبني، فهو ليس على هواي، فأقول له لماذا لا يعجبك؟ فهذا يفسق ولا نكفره لأنه لما أنكر، أنكر شيئاً ظنياً، فمن أنكر بحجة فلا إثم عليه فكل الأئمة أنكرت بحجة، أما من أنكر بغير حجة فقد خرج عن الجماعة، وخرج عن المعقول ورد الشيء من غير برهان ولا دليل، وفي هذا فسق، لأننا دائماً نبحث عن البرهان والدليل والحجة.

وهنا يتبين لنا الفارق الكبير بين منهج الأصوليين والمحدثين في التوثيق، وبين منهج المؤرخين في التوثيق، فمنهج المحدثين منهج روائي توثيقي، على أن منهج المؤرخين منهج تعليلي منطقي. منهج المحدثين اشتمل على الأمرين، لكن منهج المؤرخين لم يشتمل إلا على طرف واحد، فنحن لا نخطئ المؤرخين فيما يفعلون، ولكن نوضح الفارق بين منهجهم ومنهج المحدثين والأصوليين. فيعقوب بن شيبه^(١) وهو من كبار المحدثين ألف كتاباً سماه (المسند) وهو أبداع كتاب ألف في التاريخ الإسلامي، وأكبر كتاب جمع سنة رسول الله صلى الله عليه

(١) يعقوب بن شيبه السدوسي من كبار الحفاظ ومن المعروفين بالعلم بالصناعة الحديثية وله "المسند المعلل" وهو كتاب نفيس كبير جداً ولكن أغلب هذا المسند ضاع وإنما وجد قطعة صغيرة من مسند عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الذي وجد. وطريقته رحمه الله يذكر حديث أبي بكر رضي الله عنه ويسوق أحاديثه وإذا كان هناك واحد مكثر عنه يرتب الرواة عنه أيضاً وهكذا ويتكلم على كل حديث ويتكلم أحياناً على الرواة وأحياناً يترجم لبعض الرواة ضمن سوجه لأحاديث هذا الصحابي كما ترجم للأوزاعي في القطعة المطبوعة التي وجدت من مسند عمر بن الخطاب ترجم للأوزاعي تقريباً ثمان صفحات من المطبوع توسع في ترجمته فهو كتاب نفيس جداً ولكن أغلبه فُقد. وأقوال يعقوب بن شيبه فيها تفصيل في الحكم على الرجال له أقوال مهمة في الصناعة الحديثية وقد سأل علي بن المدني و يحيى بن معين عن التدليس سؤالاً دقيقاً ومهما ومفيداً وكلامه مفيد وينبغي أن يُعنى به.

وسلم ووصل إلينا منه فصلاً صغيرة من مسند عمر نشرتها الجامعة الأمريكية في بيروت، ولم يصل إلينا هذا الكتاب الفخم الضخم، كان ابن شيبه هذا هو إماماً لا يحاكى في حفظ الأسانيد وفي حفظ الأحاديث، ولم يكن حافظاً للقرآن، شيء غريب فهي مواهب ربانية وأقسام إلهية وكان من العجائب التي تروى عنه أنه كان يقول: "فريق في الحبة وفريق في الشعير" فهو قرأها هكذا هذا المحدث الكبير الإمام يقرأ الآية التي تقول (فريق في الجنة وفريق في السعير) يقرأها (فريق في الحبة وفريق في الشعير) فهذا شيء غريب ولكنها أقسام ربانية. إذن فالمسألة من غير تحيز كيف أصبح هذا الإنسان العدل ضابطاً في فن من الفنون ويعتمد في هذا الفن، وليس معنى هذا الاعتماد أن نعتمد عليه في كل جانب بل إننا نعتمده في ما هو إمام فيه وهذا أيضاً من سيطرة نظرية الثبوت والنقل والرواية في أذهان السلف الصالح.

حكم السند

وعلى ذلك بعد ما صنفوا الأحاديث إلى متواتر وآحاد، والآحاد إلى عزيز وغريب تكلموا عن حكم هذا السند ما هو؟ فقالوا إن الحديث منه ما هو صحيح وهو أن يرويه العدل عن العدل إلى منتهاه، أو الثقة عن الثقة إلى منتهاه، ومن هو الثقة؟ هو العدل الضابط ومنتهى السند أي عند الرسول صلى الله عليه وسلم، أو غيره بأن يكون صحابي، أو بأن يكون تابعي ولذلك اضطروا أن يسموا ما نسب إلى رسول الله بالحديث المرفوع، وسموه مرفوع لأن النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى الدرجات فهذا رفع إليه تقديراً أو تقديساً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما كان للصحابي يسموه حديث موقوف لأنه توقف على الصحابي، وما كان للتابعي يسموه مقطوع لأنه قد قطع عن باقي السند وتوقف عند التابعي ولذلك فإن الحديث المنسوب إلى التابعي هو من كلامه وهو الذي أنشأه وهذا رأيه هو، فنسميه مقطوع والذي للصحابي نسميه موقوف، والذي للنبي صلى الله عليه وسلم نسميه مرفوع

فالحديث منه (صحيح) إن كان السند كله ثقة عن ثقة عن ثقة إلى منتهاه، ولكن لو كان هو عدل وضابط لكن ضبطه أقل من الضبط الأول، فمرتين أو ثلاثة يصيب ومرة يخطئ فليس كأول فهذا يسموه حديث (حسن) إذن هذا أقل من الأول، فإن كان في السند شخص ضعيف غير ضابط وغير عدل أو كلاهما معاً فهذا يسمى بالحديث (الضعيف)، فالحديث في

المجمل له أقسام ثلاثة (صحيحاً - حسناً - ضعيفاً) وهناك أبيات لطيفة يمكن أن نأخذ منها ما يصف هذه الحالة وهي (منظومة البيهقوني^(١) في علم الحديث الشريف)

أبدأ بالحمد مصلياً على ... محمد خير نبي أرسلنا
وذي من أقسام الحديث عدّه ... وكل واحد أتى وحده
أولها الصحيح وهو ما اتصل ... إسناده ولم يشذ أو يعل
يرويه عدل ضابط عن مثله ... معتمد في ضبطه ونقله
والحسن المعروف طرقاتاً وغدت ... رجاله لا كالصحيح اشتهرت
وكل ما عن رتبة الحسن قصر ... فهو الضعيف وهو أقساماً كثر
وما أضيف للنبي المرفوع ... وما لتابع هو المقطوع
والمسند المتصل الإسناد من ... رواية حتى المصطفى ولم بين
وما بسمع كل راو يتصل ... إسناد للمصطفى فالمتصل
مسلسل قل ما على وصف أتى ... مثل: أما والله أنباني الفتى
كذلك قد حدثني قائماً ... أو بعد أن حدثني تبسماً
عزيز مروى اثنين أو ثلاثة ... مشهور مروى فوق ما ثلاثة
معنعن كعن سعيد عن كرم ... ومبهم ما فيه راو لم يسم
وكل ما قلت رجاله علا ... وضده ذلك الذي قد نزلا
وما أضفته إلى الأصحاب من ... قول وفعل فهو موقوف زكن
ومرسل منه الصحابي سقط ... وقل غريب ما روى راو فقط
وكل ما لم يتصل بحال ... إسناده منقطع الأوصال
والمعضل الساقط منه اثنان ... وما أتى مدلساً نوعان
الأول الإسقاط للشيخ وأن ... ينقل عن فوقه بعن وأن
والثان لا يسقطه لكن يصف ... أوصافه بما به لا يعرف
وما يخالف ثقة به الملا ... فالشاذ والمقلوب قسمان تلا
إبدال راو ما براو قسم ... وقلب إسناده لمتن قسم
والفرد ما قيده بثقة ... أو جمع أو قصر على رواية
وما بعلة غموض أو خفا ... معلل عندهم قد عرفا

(١) الشيخ عمر بن محمد بن فتوح الدمشقي البيهقوني الشافعي كان حياً ١٠٨٠هـ / ١٦٦٩م وقيل اسمه طه بن محمد وهو عالم بالحديث وأصولي وله كتاب فتح القادر المغيبي في الحديث وقد اشتهر بهذه المنظومة.

وذو اختلاف سند أو متن ... مضطرب عند أهيل الفن
والمدرجات في الحديث ما أتت ... من بعض ألفاظ الرواة اتصلت
وما روى كل قرين عن أخه ... مدبج فاعرفه حقا وانتخه
متفق لفظا وخطا متفق ... وضده فيما ذكرنا المفترق
مؤتلف متفق الخط فقط ... وضده مختلف فاخش الغلط
والمنكر الفرد به راو غدا ... تعديله لا يحمل التفردا
متروكه ما واحد به انفرد ... وأجمعوا لضعفه فهو كرد
والكذب المخلوق المصنوع ... على النبي فذلك الموضوع
وقد أتت كالجوهر المكنون ... سميتها منظومة البيقوني
فوق الثلاثين بأربع أتت ... أقسامها تمت بخير ختمت

فليس فقط أن يروي عدل عن عدل عن عدل ضابط في كل شيء عن مثله معتمداً في
ضبطه وعدله، لا، فلا بد أيضاً بعد أن أصحح السند على هذه الطريقة أن يكون الحديث خالياً
من الشذوذ والعلل القادحة؛ فالشذوذ هو أن يروي الثقة ما يخالف ما هو أوثق منه، والعلة أن
يشتمل الحديث على شيء يخالف أصول الدين، أو يخالف غيره من الأحاديث المشتهرة
المستقرة التي تمثل الجوهر الأساسي لدين الإسلام، ولذلك فرقوا فرقا كبيرا بين قولك هذا
حديث صحيح وهذا حديث صحيح الإسناد، فلو قلنا إسناده صحيح، أو صحيح الإسناد كانت
مرتبة أقل مما أن نقول هذا حديث صحيح، لأن الحديث الصحيح الإسناد لم ينظر فيه المحدث
بعد إلى ما في الداخل من الكلام، في حين أن قوله حديث صحيح فإنه قد نظر في السند وفي
المتن ووجد أنهما لا يتعارضان أبداً مع شيء من أصول الدين ولا مع فروعه، وعلى ذلك فهو
حديث صحيح، فالحكم بالصحة على الحديث بعد الحكم بالصحة على السند، وبعد بالحكم
بالصحة هذا على الحديث بأن يكون في إطار الممكن العقلي فإنه يأتي دور الفقه كما قدمنا
فيرد ذلك الحديث الصحيح، ولا يأخذ به لأنه معارض لما معه من أصول ومن أسس للفهم.

هذا كما رأينا خدم فيه القرآن الكريم، وخدمت فيه السنة المطهرة بعلوم كثيرة كعلم
الرجال الذي تكلم عن كل راوي على حدة فحكم عليه ممن أخذ، ومن أعطى، وأين ذهب
ومتى مات، ومتى ولد، حتى إذا ما قال سمعت فلاناً، فأقول له إذا كان فلان مات قبل أن تولد
إذن فأنت كذاب، فخدموا القرآن والسنة خدمة فائقة راقية، لكن لم يتم ولم تتم مثل هذه الخدمة
في الإجماع، والإجماع دليل منقول من الكتاب والسنة، فكان ينبغي عليهم أن يهتموا به
اهتمامهم بالكتاب والسنة، وأن يروا الإجماع ويقولوا أنه قد أجمع المجتهدون فهم فلان وفلان

وفلان فاتفقوا على هذا فلم يحدث مثل هذا في تاريخ الإسلام لتشتت المجتهدين في الأفق، لأن لكن عصور المجتهدين تختلف فيموت هذا ويحيى هذا وكذا.

فالنسائي عندما سئل: قد ألفت في قصائص وفضائل الإمام علي، فألف لنا في قصائص وفضائل معاوية، فقال لا أعرف له من فضله، فانا لم أجد حديث يمدح معاوية، لا فهو قد زاد على هذا أنه قال باستهزاء، تذكرت له شيئاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (لا أشبع الله لك بطناً) فهذا ما أتذكره لمعاوية فضربوه فقتلوه، فمات عام ٣٠٣ هـ — وكان عنده تسعون عاماً مات لماذا؟ لأنه كان يغضب من معاوية بعض الشيء، حتى قال بعض العلماء أن هؤلاء الخمسة حتى لو نحيناهم من الصحابة ولو نحيناهم من الرواية، فأذكرهم فلا تسبهم ولا تترضى عنهم، فلا تسبهم لفضل الصحبة ولأن الرسول صلى الله عليه وسلم حذرنا من سب الصحابة ولأنهم رأوا الرسول صلى الله عليه وسلم، وماتوا مؤمنين به، فمعاوية فعل أفاعيل للإسلام لعل أنها تغفر له يوم القيامة لكن نحن نكره الأفعال المخالفة للشريعة ولا نكره هذا العاصي، لأن العدل هكذا.

أسئلة ومناقشات وتعقيبات

س: أنا أرى أنه لا يوجد نقطة وسط بين الحديث الصحيح والضعيف فما رأى

سيادتكم في هذا؟

ج: كيف لا يكون هناك في إدراكنا للقضية في الواقع ليس فيه إلا (أو) وما في الذهن ليس فيه إلا الواو، هل ذهبت اليوم إلى المكان الفلاني أو لم تذهب؟ فالواقع إما ذهبت أو لم تذهب لا يجتمعان، لكن أنا هل يعنى أنا متأكد ١٠٠% أنك لم تذهب أو متأكد ١٠٠% أنك ذهبت، فأنا عندي احتمالين متساويين. إذن فالجمع بين الاحتمالين إنما هو قائم في ذهني لا في الواقع، فهو قائم في الأذهان لا في الأعيان، فمثلاً رسول الله قال هذا أم لا (الرجل يعذب بكاء أهله) أو قال (يعذب الرجل وأهله سيكون) الواقع واحدة من الاثنان، أما أنا فسمعت كلام ابن عمر فقط، وأنت مثلاً سمعت كلام عائشة فقط، وجاء آخر فسمع الاثنان فاحتار.

فمثلاً لو قال أحدكم كلام وقلت أنا كلام آخر فمن سيصدقون بالتأكيد سيصدقون كلامي فلو قام هذا الشخص بالصراخ والتمسك بأنه على صواب وقام بالحلفان فسيأتي شخص وسيشك في أن هذا الشخص يكذب وفي نفس الوقت فهو لم يفقد ثقته في كلامي وإنما اهتزت الصورة فقط فبعد أن كان متأكد من كلامي ١٠٠% أصبح متأكد بنسبة ٨٠% فبعد أن كان كلامي صحيح أصبح حسن، فهنا دقة في وصف حالة التلقي وليس حالة الوصول إلى الحقيقة في نفس الأمر، نحن لا نريد ولا نستطيع أن نصل إلى الحقيقة في نفس الأمر إنما كل ما نريد أن نسد ونقارب وأن نتعلم في هذا المجال أن نحكم على الشيء بما يناسبه، ولذلك فلو أن هذا الذي حكمت له أنه حسن، أتى من طريق آخر ينضم إلى الطريق الأول فيقويه، لماذا قلت حسن؟ وقلت أن الرجل ليس ثقة وإنما صدوق فقط أنت تخاف أن يكون قد نسي، وغيره رواه، وهذا تأكيد أنه يكون صحيحاً، فتقول أنه صحيح لغيره، وهناك درجة أخرى تسمى صحيح لذاته، فإذا انضم ثالث ورابع فظهر سند صحيح، يكون صحيح لذاته.

علم يريد أن يبحث عن الإثبات وتوثيق المصدر فيذكر بكل ما يفيد هذه القضية، وتأكد انه فكر كثيراً لدرجة أنهم أنشئوا هذا العلم متكاملًا، ولا يوجد على وجه الآخر شيء مماثل لهذا التوثيق سوى السنة المطهرة والقرآن الكريم. لكن هذه درجات تجعل الإنسان لو حدث تعارض بين حديث قد حكم له بالصحة، وحديث قد حكم له بالحسن، أن يقدم الصحيح على الحسن.. أو حديث حكم له بالحسن وحديث حكم له بالضعف أن يقدم الحسن على الضعيف، إذن فهناك تدرج وهذا التدرج إنما هو بالأذهان، والتدرج بفك التعارض

والتدرج قد يزول ويتحول من ضعيف إلى حسن، ومن حسن إلى صحيح عند تقوية بعض الأسانيد بعضها.

س: لقد ذكرت سيادتكم نقطتين أنا لم أفهماهما بالضبط، النقطة الأولى هو الصحيح والصحيح الإسناد فهل من الممكن حديث صحيح الإسناد ولكن هو ليس صحيح؟

ج: نعم، ممكن ذلك ذهب بعض الضلال في تاريخنا إلى أن يأتي بحديث يضعه من نفسه، ويركب عليه سند صحيح، فإذا سمعت أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، قد روي عن عبد الرزاق بن الهمام، عن فلان عن فلان وهكذا أن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أستمكتم فأبلحوا) فهذا كلام غريب فقد خرج رجلاً، وكان تاجر سمك فخرج بعد صلاة الجمعة وقال في الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال (من أكل سمكاً بعد صلاة الجمعة دخل الجنة) فذهبت الناس يأكلون السمك من عند هذا الرجل وكان بجواره تاجر بلح ووجد أن كل الناس تذهب للسمك ولم يشتري من عنده أحد فقام وقال أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (إذا أستمكتم فأبلحوا) لكي يذهب الناس فيشترون منه فهذا بالطبع هذيان فلو أننا ركبنا عليه سنداً صحيحاً لكان صحيح الإسناد ولكنه ليس صحيح المتن لأنه تخاريف.

س: لو أمامي حديث صحيح الإسناد، هل متروك لي بعقلي ومقارنتي أن أخذه به أو أتركه أم هناك قواعد؟

ج: يصبح من شأنك عندما تصبحين مجتهدة فالنظر في الحديث والأصول من شأن المجتهد فالمسلم إذا ما لم يصل إلى درجة الاجتهاد فحقيقة أنه لا يستطيع أن يحكم على النصوص حكماً نهائياً لا بد أن يتوفر عندك من الأدوات ما تستطيعين به أن تزيلي الشذوذ والاعتراض والعلل من هذا المتن وأن تتظري لهذا السند فتحكمي له بالصحة أو بالضعف أو بغيره ثم بعد ذلك لك أن تحكمي فهذا فن دقيق تتولد منه ملكة، حتى قالوا أن العلة أمر داخلي في نفس المحدث لا يحسن التعبير عنه لدرجة أن المجتهد يشعر بالحديث الصحيح والحديث الضعيف من كثرة تعوده على سماع حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، إذاً لا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذا المستوى إلا بعد الدربة على علم الحديث دراية ورواية.

س: إذن فهل لو وجدت حديث صحيح الإسناد هل لا أخذ به ؟

ج: لا فإلحوظ أن نأخذ به لأنه صح إسناده، فترجح أخذه، ولم يصح رده بعد. كل الأحاديث الصحيحة الإسناد أغلبها صحيحة المتن فالأرجح أن تأخذي بها.

س: إذن لماذا لم يتم رفض صحيح الإسناد ومتمته خطأ ؟

ج: لأن السنة بحر فهي كثيرة جداً ولم يستطع أحداً، على ذلك فكلما يصل إنسان إلى درجة الإمامة في علم الحديث ينتهي عمره ولا يكمل غيره عليه، ولذلك فهو من العلوم التي تحتاج خدمة إلى يوم الدين وخدمة من علماء كثر، وهذا ما نحاوله الآن من خلال استخدام وسائل العصر الحديثة مثل الكمبيوتر.

س: النقطة الثانية التي تحيرني هي عن الإجماع فما استوعبته هو أن ما اتفق عليه المجتهدين فهذا هو إجماع، فمثل ما سيادتك قلت أنه لا يوجد شيء اسمه إجماع ولكن الأفضل أن نقول أنه لا اختلاف عليه، فالصحابا أنفسهم في حديث الرسول ٣ "لَا يُصَلِّينَ أَحَدُكُمْ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ." أيام الرسول اختلفوا أن يجمعوا على شيء حتى والرسول بين أيديهم فأنا أريد من سيادتك إيضاح لهذه النقطة.

ج: لكن الصحابة أجمعوا على أشياء كثيرة ولم يجمعوا على أشياء فأنا متفق معك ولكنهم أيضاً أجمعوا على الظهر أربعة، وأن القبلة هي الكعبة، فالدكتور عمر سليمان اختلف عليه أمران، ما هو الاتفاق، عمر الأشقر يقول في كتابه: "أن الإجماع بالمعنى الأصولي لم يتحقق" هذه الدعوة منه جاءت لأنه ظن أن القول في التعريف أن الإجماع هو الاتفاق، وأن هذا الاتفاق اتفاق قولي فقط، بحيث أن مجموعة من العلماء تقول ويصدر منها أن هذا حكم الله في الكذب، ولكن الأمدي مثلاً يقول: "أن الاتفاق هنا إما أن يكون بالفعل، والقول، أو التقرير أو السكوت" فجعلها أربعة فالدكتور عمر لم يأخذ باله لأن هذا الكلام الذي ذكره الأمدي لا يوجد إلا في الأحكام، فهو تصور أن الاتفاق اتفاق قولي لماذا؟ لأنه لم يأخذ باله من الإجماع السكوتي ما هو؟ فكثير جداً من الأساتذة يعتقدون أن الإجماع السكوتي هو عبارة عن أن يتكلم البعض ويسكت الآخرون، في حين أن التعريف عند الأصوليين ليس هكذا، إنما التعريف هو أن يتكلم واحد - ليس البعض - ويسكت الآخرون فهذا هو السكوتي، فهو في ذهنه دائماً أن البعض ولكن هو ليس البعض بل هو الواحد أما إذا كان البعض وسكت الآخرون بهذا فهو الإجماع الأصولي وليس السكوتي، لأن الاتفاق كما يتم بالقول ويتم بالفعل ويتم بالسكوت، وهنا نجد كثيراً جداً من الإجماعات الأصولية بهذا المعنى الذي أقره الأمدي، وأقرته مدرسة الرازي، وأقره البيضاوي، وكل ما نعلمه من الأصوليين.

القضية هنا هي في قضية تعريف الإجماع، فالإجماع هل هو اتفاق قولي؟ لا لم يقل أحد ذلك إلى يومنا، إنما هو اتفاق المجتهدين من أمة محمد فهو اتفاق أي اجتماع هؤلاء الناس

قولاً وفعلاً وتقريراً وسكوتاً، فقد أجمعت الأمة مثلاً على أنه ليس لغير النبي ٣ أن يعذر باعتذار الزوجات كما حدث في المخلفين في غزوة تبوك، والمخلفين الثلاثة هم ابن أمية وكعب بن مالك والربيع، فهؤلاء أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل التعذير وإيقاع العقوبة عليهم ألا تخدمهم أهاليهم وزوجاتهم، فهل لقائد بعده أن يوقع نفس العقوبة على رجل من أمة محمد تخلف عن غزو؟ أجمعت الأئمة على أن لا يجوز لأنها من خصائص النبي، فهذه مسألة من الإجماع الحاصل وهذا إجماع أصولي، لأن كل من سئل في هذه المسألة أفتى بأنها من خصائص النبي وسكت الباقون، أو أقر الباقون، أو فعلوا ذلك فلم يعذر بهذا التعذير أحداً من المسلمين إلى يومنا هذا.

مثلاً أجمع المسلمون -بالرغم أن النصوص تحتل- بأن الرجال لا تخفى وجوهاها على النساء، فهذا إجماع، سئل في هذا بعض الأئمة وقالوا ذلك بالرغم أن القياس أنه يخفى وجهه، لدرجة أن بعض علماء الشافعية المتأخرين قالوا بها، والشيخ الزيايدي أفتى بهذا، فمثلاً أجمع المسلمون على جواز ركوب الطائرة ولم يقل أحداً ولم نسمع أنه حُرْم ركوب الطائرة وسمعنا من يحرم المذياع، وسمعنا من يحرم لبس الساعة، وسمعنا من يرحم الأكل بالملعقة وسمعنا بمن يحرم لبس الزى العسكري، وسمعنا بمن يحرم رصف الطرق، وسمعنا بمن يحرم الصور والتلفاز، ولم نسمع بمن يحرم ركوب الطائرة ولا ركوب السيارة فهذا إجماع، وإجماع حادث وناشئ عن دليل لكنه كاشف لهذا الدليل وليس منشئ للحكم، لأن الإجماع هو الذي يكشف ولا يُكشَف

الإجماع في الحقيقة أنه عندما نفي من بعض الناس نفيت بعض وظائفه وهي قضية الإنشاء. فهل الإجماع منشئ؟ لا، فالإجماع ليس منشئ وهنا يرتاح بالناس فالقضية كلها مردودة للكتاب والسنة، إذن فما فائدته؟ فائدته هو تحويل الظني إلى قطعي، والإجماع مفيد في أن تجتمع الأمة على شيء وهذا الشيء يصير تشريعاً ويمنع المخالفة لإقرار المصالح بين الناس وتقوية الأمة وكذا ويمكن للإجماع بهذه الصفة أن يشتغل الآن لحل كثير من المشكلات العصرية، بأن يجتمع المجتهدون ويقررون في ضوء مبادئ الشريعة وبنظرية الإلحاق أمراً معيناً من أمور العصر فيصير ذلك إجماع منهم هو أصلاً عبارة عن إجماع على مصلحة، ونتقى بذلك أن نخرج على دين الله في المجالس التشريعية العصرية، ونتقى بذلك أن نتوقف عند مسائل السلف الصالح، ونتفاعل وأن نقوم بواجبات عصرنا، كل هذا يمكن أن يتم بالإجماع ويكون ملزماً للناس، مع أننا نقول أن الإجماع الأصولي ليس منشئاً باتفاق، ولكن ينبغي علينا أن نفرق بين الكلمات وأن نرى هذه الأشياء من جوانب ومداخل معينة حتى نحرر ما نريد بالضبط، وهو أن يكون هناك اتفاق (بالقول، أو بالفعل، أو بالتقرير، أو بالسكوت) هذا الاتفاق يلزم منه أن تكون الطائفة التي مازالت على الحق إلى يوم الدين قائمة موجودة في هذا

الاتفاق، وعلى هذا فإن هذا اتفاق يرضى عن الله ورسوله وقد أظهر لنا مراد الشرع في تلك المسألة وفي هذه الواقعة على هذا المنوال، وهذا أمر جميل وله فائدة وليس فيه أي شبهة لإنشاء حكم، وشكرا لكم وإلى لقاء آخر والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.